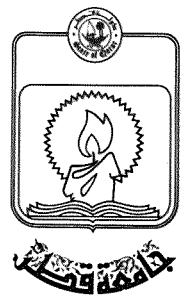

مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العـــدد الثانـــي والعشـــرون

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

البـــديع
بحث في نشأة
المصطلح ومفهومه

د. الأخضر عيكوس
معـهد الآداب واللغـة العربيـة
جـامعة قسـنطينة

البديع : بحث في نشأة المصطلح ومفهومه

د. الأخضر عيكوس

معهد الآداب واللغة العربية
جامعة قسنطينة

١ - نشوء مصطلح البديع : البداية مع الجاحظ :

يكاد يجمع دارسو البلاغة العربية - قديماً وحديثاً - على أن عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، هو أول من ألف في البديع، ويُعدون عمله الشهير «كتاب البديع» الحجر الأساسي في بناء صرح هذا الفن الذي اتخذ شكله التام، و «بلغ ذروته في نهاية القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع بظهور مؤلَّف أسامة بن منقذ «البديع في نقد الشعر» ومؤلَّف زكي الدين بن أبي الإصبع (ت ٦٥٤ هـ) المُسمى «بديع القرآن» [١].

وعلى الرغم من هذا الإجماع، وبالرغم من تصريح ابن المعتز نفسه بأنه أول من ألف في هذا العلم، إلا أن البلاغيين يفضلون أن ينتزعوا منه قصب هذا السبق، ويمنحوه الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي يُعد في نظرهم أول من فطن إلى ظاهرة البديع كمذهب جديد في الصياغة الشعرية، حيث «مهدت ملاحظاته المتعلقة بالبديع في الشعر لبروز اتجاه في التأليف يرتكز على هذا الجانب، ويتجه وجهة الإحصاء والتبويب لوجوهه (المختلفة) مع محاولة تحديدها وتوضيحها بشواهد من الشعر والقرآن. وقد كان عبدالله بن المعتز فاتحة هذا الاتجاه بكتابه «البديع» [٢].

وربما ذكروا بعض هذه الملاحظات، وترصدوا لبعض الظواهر البديعية التي ناقشها الجاحظ وألمَّ بها في كتبه المختلفة: ولكنهم قالوا إن الجاحظ «لم يشتق ذلك في تعريفات

وتحديات؛ فقد كان مشغولاً بإيراد النماذج البلاغية وقلّما عُنيّ بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التي يقررّها »[٣] ؛ إلا أن الجاحظ قد سبق ابن المعتز في ألوان بديعية منها : «السجع، والازدواج والاحتراس، وحُسن التقسيم، وأسلوب الحكيم، واللغز في الجواب،والإرصاد »[٤]، وهو قد ذكر كلمة «بديع» في أكثر من موضع في كتاباته البيانية، وضرب لها أمثلة[٥].

كما أنه تحدث عن بعض الشعراء ممن برعوا في فنّ البديع، واتخذوه مذهباً في قصائدهم مثل مسلم بن الوليد، وبشار بن برد، والراعي النميري وغيرهم. وقد يكون منحهم الجاحظ فضل أسبقية الحديث عن البديع عائداً إلى عبارته «المتطرفة» الشهيرة التي تقصر هذا الفن على العرب دون سواهم، قال : «والبديع مقصور على العرب، ومن أجلهم فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان»[٦]. ولكن هذه المكانة التي تبوأها الجاحظ في سلم بناء هذا الصرح الفني، لم تمنع دارسين آخرين من أن يرتابوا فيها؛ خاصة وأنها مكانة متعلقة بأسبقية «الابتداع» والاكتشاف، وأن المسألة في حد ذاتها مسألة إبداع وابتكار واختراع.

وهكذا، فقد عبر هؤلاء صراحة- وهم في معرض مقارنة بين الرجلين - عن أن الجاحظ سبق ابن المعتز في تناول مسائل «النظرية البلاغية» ولكن دون تنظيم أو تدقيق منهجي»[٧]. وأن لفظة «بديع» - كمفهوم - ظلت عنده تتصف بالعمومية والابتذال بخلاف ما تمتاز به من دقة وسمو عند ابن المعتز[٨] كما يقول كراتشكوفسكي. و «إن من يتمسك بالنصوص الصريحة التي ذكر فيها الجاحظ البديع، قد لا يخرج فكرة واضحة ... ثم إن قيمتها الاستنادية لا تكفي لإعادة بناء نظرية موضوع ظل غامض المعالم منذ القديم بالرغم من بروزه كعلم مستقل يمثل إحدى الدعائم الثلاث التي يقوم عليها علم البلاغة»[٩].

والحقيقة أن الجاحظ قد لامس كثيراً من جوانب فن البديع الذي كان يعني عنده الجديد الطريف من الشعر المصوغ على غير الأساليب المألوفة. والشئ إذا صيغ - كما قال-: «من غير معدنه كان أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد من الوهم، وكلما كان أبعد من الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع»[١٠].

إذن، فالبديع - كما يتضح من خلال هذا النص الذي يشتمل على مصطلحات خمسة: أغرب - أبعد - أطرف - أعجب - أبدع - يعني «استخراج المعاني والتراكيب من غير مظانها، ونحتَها من النماذج الكلامية التي لم توضع لها في الأصل، أي بعبارة أخرى صوغها على غير المجاري المعهودة لها عند الناس»[١١].

وقد سرد الجاحظ أمثلة شعرية متنوعة قد تتصف بالعمومية من حيث تحديد مفهوم البديع؛ ولكنها ليست مبتذلة، بل تتجلى فيها مظاهر الإبداع كما تصوره؛ وهي أمثلة مبثوثة في كل من كتابي «البيان والتبيين» و «الحيوان»[١٢].

ويرى أحد الباحثين أن تلك الأمثلة الشعرية يمكن أن تكشف عن جوانب في فن البديع لم تعرف حتى الآن، وذلك إذا ما درست دراسة معمقة[١٣]. وينتقي هذا الباحث بيت الأشهب بن رميلة:

هُمُ ساعد الدهر الذي يُتّقي به وما خير كفٌّ لا تنوء بساعد

معتبراً إياه عينة ثمينة وسنداً تاريخياً هاماً يمكن استثماره في اكتشاف بعض أصول هذا الفن. وفعلاً، يحلل الباحث هذا البيت الشعري، ويدرسه ليخرج بملاحظات في غاية الطرافة[١٤].

والحقيقة أن الجاحظ، وإن لم يضع نظرية مستقلة في البديع، فإنه قد أشار إلى بعض أنواعه، وسجل ملاحظاته المتوثبة حول التغيرات الجديدة الطارئة على أساليب التعبير الشعري في عصره. ونصّ على أنها أساليب طريفة مبتدعة، وذكر أسماء الشعراء الذين

ولعوا بالبديع، وذهبوا فيه مذاهب مختلفة، قال : «والراعي كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع، والعتابي يذهب في شعره في البديع مذهب بشار»[١٥].

وعلى كل حال، إذا كان الجاحظ يُنازع في مسألة السبق إلى اكتشاف فن البديع - وهو عنده مذهب متميز في التعبير الشعري - فإنه لايمكن أن ينازعه أحد في كونه «سطر للبلاغة نهجاً وضبط حقل اهتمامها باعتبارها علماً بطرق القول وأفانين التعبير تقوم عليه شرعية وجودها في شجرة علوم اللسان»[١٦].

٢ - التأسيس : ابن المعتز يضع المصطلح

أشرت قبل قليل إلى أن دارسي البلاغة العربية يكادون يجمعون على أن أول تأليف مستقل في علم البديع هو من إنجاز عبدالله بن المعتز؛ ولكنهم - وإن سلموا بأسبقيته في جمع ألوان هذا الفن وتصنيفه وتبويبه - ما يفتأون يحاولون انتزاع مصطلح «البديع» من الرجل، وينسبون فضيلة السبق في إطلاق هذه التسمية على أفانين جديدة من التعبير الشعري - أول مرّة - إلى واحد من الشعراء المحدثين هو مسلم بن الوليد[١٧].

ولست أدري ما الداعي إلى محاولة تجريد ابن المعتز من هذا المصطلح مع أنه لم يدع ابتكاره؛ بل إنه نسبه صراحة إلى المحدثين من الشعراء، وذلك حين قال في مفتتح كتابه : «قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث الرسول ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وغيره، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع...»[١٨].

ولكن يبدو أن الذين كانوا ينازعون ابن المعتز قصب السبق إلى اكتشاف البديع هم اللغويون؛ لذا كان يلحى عليهم باللائمة ويتهمهم بجهلهم هذا الفن. قال : «فأما العلماء باللغة والشعر القديم، فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو. وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد، وألّفته سنة أربع وسبعين ومائتين»[١٩].

وتحديد التاريخ - ها هنا - مهم لأنه يُشكل معلماً لبداية تأسيس هذا العلم. وقال يؤكد هذا السبق في موضع آخر من كتابه : «ولعل بعض من قصر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته...»[٢٠].

ولكن يبدو أن علماء اللغة والشعر القديم الذين رماهم ابن المعتز بجهل مصطلحه «البديع الذي هو اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم»[٢١]، قد استاؤا من حكمه عليهم؛ لذلك حملوا عليه يريدون تجريده من فضيلة السبق إلى مصطلح البديع الذي وضعه عنواناً لمؤلفه. وتستمر حملتهم على مرّ العصور ممعنة في هذا التجريد حتى يتحول ابن المعتز عندهم من عالم مبتكر إلى مجرد مبوّب ومرتب «لما تناثر في كتب الفراء وأبي عبيدة، والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وثعلب....»[٢٢]، ولو أنه «امتاز عنهم بنظرية نقدية تعتمد على الذوق والمعرفة الواسعة»[٢٣]. كما يقول بعضهم. وتتولى هذه الأحكام ينقلها اللاحق عن السابق إلى يومنا هذا .

وفيما يلي جملة من هذه الأحكام التي اعتبرها أحكاماً جائرة في حق هذا الرجل الذي نظر في أدبية النص الشعري في التراث العربي، فوضع سجلاً لأهم الأدوات التعبيرية التي تميزه عن غيره من النصوص الأدبية[٢٤].

يقول أحد الباحثين في البلاغة العربية: «وكلمة «البديع» التي وضعت عنواناً لهذا الكتاب لم يكن عبدالله بن المعتز أول مستعمل لها، بل كانت مستعملة في كلام العرب في كل شئ يستحسن لطرافته ... وكذلك استعملت هذه الكلمة في معناها الأدبي قبل ابن المعتز، وقد ذكرها الجاحظ ... وذكر جماعة من الشعراء العباسيين اشتهروا بالبديع»[٢٥].

ويرى باحث آخر أن ذكر الجاحظ للراعي بأنه كان كثيراً البديع هو الذي أوحى لابن المعتز بفكرة سبق الأقدمين إلى البديع التي دعا إليها، وذلك لأن الراعي كان شاعراً أموياً. وهذا الاحتمال قد يكون صحيحاً؛ ولكن لننظر إلى ما في هذا النص من تهوين من

شأن الرجل وتجريده من فضيلة السبق إلى علم البديع، يقول : «وما من شك في أن كثيراً من الفنون التي صورها ابن المعتز في كتابه التقطها التقاطاً من كتابات الجاحظ إما منه مباشرة أو ممن نقل عنهم آراءهم في البلاغة ومحاسنها المختلفة...»[٢٦].

ويجد المرء نفسه في موقف من العجب والاستغراب حين يرى من بين الدارسين المعاصرين من ينصب نفسه مدافعاً عن علماء اللغة والشعر القديم الذين نفى عنه ابن المعتز معرفتهم لعلم البديع! ... يقول شوقي ضيف إن ابن المعتز كان ينقل عن الخليل بن أحمد الدلالة اللغوية في المصطلحات البديعية التي استنبطها...، مثال ذلك قوله في تعريفه للمطابقة[٢٧]. ويحشر الأصمعي في حقل «الحداثة» التي نادى بها ابن المعتز ويقول عنه إنه قد ذكر بعض أنواع البديع مثل الالتفات والإيغال وإن لم يذكره باسمه[٢٨].

وقد أثرّت مثل هذه الأحكام على عدد من الدراسات المعاصرة التي تناولت فن البديع ومؤسسه؛ فتبنى أصحابها هذه الأحكام أو انطلقوا منها في البحث عن جوانب أخرى من الضعف في إنجاز الرجل الذي يبدو في نظر أحدهم مقصراً عمن سبقه ممن النقاد والبلاغيين إذ أن «معلوماته عن التشبيه» مثلاً «دون معلومات المبرد جملة وتفصيلا، بل دون ما صاغه أبو عبيدة قبله بقرن كامل في كتابه «النقائض» وقس على ذلك حديثه عن الكناية والتعريض والاستعارة ...»[٢٩].

ولا أريد أن أنصب نفسي، أنا الآخر، مدافعاً عن ابن المعتز لأردّ عنه بعض ما أتُّهم به؛ بل أترك تلك المهمة لغيري من الدارسين ممن بحثوا في البلاغة بصفة عامة وفي البديع بصفة خاصة وأنصفوا الرجل وأثنوا عليه، وثمنوا إنجازه العظيم المتمثل في «كتاب البديع» الذي ظل يقاوم هجمات «المعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل»[٣٠] عبر الزمن، ويحظى بإعجاب كثير من النقاد وتقريظهم واستحسانهم إلى اليوم. وقد نص ابن رشيق في عمدته على أن ابن المعتز هو أول من جمع البديع وألّف فيه كتاباً[٣١]، وابن المعتز هو

«أول من صنّف في البديع ورسم فنونه وكشف عن أجناسها وحدودها بالدلالات البينة والشواهد الناطقة بحيث أصبح إماماً لكل من صنّفوا في البديع ونبراساً يهديهم إلى الطريق»[٣٢].

وهو - فضلاً عن حيازته قصب السبق في التأليف في البديع - يعد أول بلاغي صاغ بعض الفنون البلاغية صياغة نظرية، استقرت كمعلم ثابت في تحديد مسار التأليف البلاغي فيما بعد؛ وبيان ذلك «أن الذين سبقوا ابن المعتز كانوا يتعرضون للموضوعات البلاغية وهم بصدد أبحاث قرآنية أو لغوية، أما هو فقد عمد إلى التأليف البلاغي عن قصد وجعل من البلاغة غاية تأليفه»[٣٣]. ومع أن عبارة «أول كتاب استقرت فيه نظرية لبعض الفنون البلاغية» لم ترق أحد الدارسين[٣٤] إلا أنه لم يجد مع ذلك مناصاً من الإشادة - في شئ من الاحتراس - بفضل ابن المعتز وقيمة كتابه الذي «يعتبر على صغر حجمه وقلة ما أضاف إلى مادة العلم منعرجاً حاسماً في التأليف البلاغي، ومساهمة فعّالة في بلورة العلم وتخليصه من تبعية العلوم الأخرى؛ فهو في حدود ما وصلنا أول تأليف مخصص لجمع الأساليب البلاغية بكيفية لم تسبق، إذ وردت مستقلة عن العلوم الأخرى مقصودة في ذاتها. وهذه خطوة هامة في طريق نشأة هذا الاختصاص وبروزه ضمن شجرة الاختصاصات الأدبية»[٣٥].

لم يفت مثل هذا الباحث وغيره أن يكتشفوا في شخص ابن المعتز ذلك الناقد الأسلوبي البارع الذي وجه أنظار الناس إلى جوانب من النقد جديدة؛ فقد تحول ابن المعتز بالنقد القائم على أساس النحو واللغة والمعاني إلى نقد آخر «يقوم على تمييز الأسلوب الأدبي بما فيه من فنون البديع، وفنون البديع عنده أولها الاستعارة وعلى هذا فقد أدخل ابن المعتز «الصورة» أو الشكل في عناصر النقد الأدبي بعد أن كان معظم النقد من قبله متجهاً إلى الكلمة وما يصيبها من خطأ أو لحن، وإلى المعنى وما يطرأ عليه من انحراف أو رداءة»[٣٦].

وابن المعتز عند هؤلاء يُعد صاحب فضل مباشر «لأول محاولة للقيام بتحليل منظم للأسلوب الشعري عند العرب وذلك ضمن الإطارات التي كوّن فيها عمله الفكري»[٣٧]. وكانت أداته النقدية في ذلك الفنون البديعية التي اكتشفها ووضع مصطلحاتها واعتبرها عنصراً أساسياً «من عناصر نقد الأسلوب وعاملاً من عوامل المفاضلة بين الأدباء...»[٣٨].

وهذا الاهتمام بالجانب الشكلي في القصيدة الشعرية من قِبَل ابن المعتز، وبحثه في صورها الفنية من حيث البنية اللفظية على وجه الخصوص هو الذي دفع بأحد الباحثين إلى القول : «يجوز اعتبار (كتاب البديع) فجر الشكلانية العربية الأصيلة في البلاغة والنقد ما دام اهتمامه هو وضع اليد على الأدوات التعبيرية التي تميز الشعر عن غيره بغض النظر عن العناصر الغريبة عن النص والعناصر التي لا تمثل سمته»[٣٩].

والخلاصة أن ابن المعتز قد رسم «منهج البديع أو وسائل تحسين الأسلوب الأدبي، ومهّد السبيل لكثير من العلماء الذين خاضوا بحار الصنعة، واستخلصوا فنوناً بيانية لا يدركها الحصر، ونبهوا إلى شئ من آثار تلك الفنون في تجميل الأساليب وفي توضيح المعاني...»[٤٠].

والملاحظ أن دارسي البلاغة والمؤرخين لنشأتها وتطورها لا نجدهم يذكرون أي تأثير لابن المعتز فيمن تلاه من المصنفين في علم البديع على وجه الخصوص؛ مثل أبي هلال العسكري وابن رشيق وأسامة بن منقذ وابن أبي الإصبع من أصحاب المدرسة الأدبية، ويختفي تأثير ابن المعتز أو يكاد في المصنفات البديعية التي أنجزها أصحاب المدرسة الكلامية من أمثال قدامة بن جعفر وفخر الدين الرازي، وأبي يعقوب السكاكي، وأبي محمد القاسم السجلماسي، وابن البناء المراكشي وغيرهم.

وأخيراً، فإن ما قدمناه من الصفحات القليلة السابقة كان حديثاً عن البداية الأولى لنشوء مصطلح البديع والملابسات التي أحاطت به وبالظاهرة البديعية بوصفها حركة أدبية

مستحدثة ورؤية نقدية وجمالية جديدة في تذوق النص الشعري وتقويمه؛ وعلماً بأصول ومسائل تتعلق بكيفية صياغة العبارة الشعرية صياغة جميلة ينفعل لها المتلقي «انفعالاً من غير روية إلى جهة من الانبساط أو الانقباض»[٤١]، كما يقول حازم القرطاجني.

٣ - مفهوم البديع لغة واصلاحاً :

أولاً : البديع لغة :

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس أن للجذر «بدع» أصلين...«أحدهما ابتداع الشئ وصنعه لا عن مثال، والآخر الانقطاع والكلال»[٤٢]؛ وقال : «فالأول قولهم: أبدعت الشئ قولاً أو فعلاً، إذا ابتدأته لا عن سابق مثال. والله ﴿ بديع السموات والأرض ... ﴾ الأنعام : ١٠١. والعرب تقول : ابتدع فلان الركي إذا استنبطه .. والأصل الآخر قولهم : أبدعت الراحلة إذا كلّت وعطبت (هلكت) ويقال: الإبداع لا يكون إلا بظلع، ومن بعض ذلك اشتقت البدعة»[٤٣].

وإذا كان الأصل الأول لهذه الكلمة هو الذي يعنينا، فإن الأصل الثاني قد جئت به هنا لما يتضمنه من طرافة وإشارة مفيدة في قوله :«ومن بعض ذلك اشتقت البدعة». أي بمعنى أن البدعة بالقياس إلى السنة في عُرف فقهاء الإسلام عطب يصيبها ومرض ينجم عنه فساد في خلق المرء المسلم ودينه.

وفي لسان العرب لابن منظور نعثر على دلالات لغوية مختلفة للفظة «بدع» ومشتقاتها. ونسوق هنا ما يعنينا من هذا الدلالات. قال : «والبديع والبدع الشئ يكون أولاً»[٤٤]، وفي التنزيل العديد : ﴿ قلْ ما كنتُ بِدعاً من الرسلِ﴾ سورة الأحقاف :آية ٩؛ أي ما كنت أول من أرسل، قد أرسل قبلي رُسُلٌ كثير»[٤٥] وقال : «والبديع؛ المحدث العجيب. والبديع المبدع، وأبدعت الشئ اخترعته لا على مثال»[٤٦].

وعلى عادته يثبت صاحب اللسان كثيراً من الدلالات اللغوية لهذه الكلمة لا سيما الدينية منها، وينقل عن ابن السكيت قوله: «البدعة بدعتان : بدعة هدى وبدعة ضلال»[٤٧] فما كان منها في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ ، فهو في حيز الذم والإنكار، وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه، وحض عليه أو رسوله فهو في حيز المدح، وما لم يكن له موجود كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، فهو من الأفعال المحمودة»[٤٨].

أحب أن أثبت هذه الدلالة الدينية لمفهوم «البدعة» لأنها ستكون سبباً في اختلاف البلاغيين حول مفهوم طبيعة البديع، وبالتالي تحديد مواقفهم منه - (زينة وحلية عند بعضهم وعمود البلاغة وروحها عند بعضهم الآخر) - بناء على هذه الدلالة، وانطلاقاً منها؛ إذ ليس البديع الذي جاء به الشعراء في قصائدهم عند فريق من النقاد - وعلى رأسهم ابن المعتز - سوى ضرب من البدعة وخروج عن سنن العرب في نظم الأشعار ، أو خروجٍ عما عُرف في النقد القديم بعمود الشعر .

ولا يبتعد صاحب القاموس المحيط كثيراً عن ابن منظور في تحديد دلالات البديع اللغوية ، حيث وردت كلمة «البديع» عنده بمعنى المبتدِع بالكسر والفتح معاً . وقال : «البديع حبل ابتديء فتله ولم يكن حبلاً فنكث ثم غزل وأعيد فتله ... والبديع «الزق الجديد» وفي الحديث «إن تهامة كبديع العسل»[٤٩] . وقال أيضاً : وأبدع الشاعر أتى بالبديع»[٥٠]. أي المبتدع . وهذه الدلالات هي التي تقربنا من تحديد مفهوم «البديع» في الشعر من الناحية اللغوية . ولكن «البديع» بهذا المفهوم ليس بعيداً عن كلمة «البدعة» ، وهي تعني «الحدث في الدين بعد الاكتمال وما استحدث بعد النبي ﷺ من الأهواء والأعمال»[٥١].

ويلاحظ هنا بروز لفظة «بديع» بمعنى المبتدع أي الجديد وإخفاء دلالة الأصل الأول التي منحها صاحب «معجم مقاييس اللغة» هذه الكلمة حين قال عنها إنها تعني «ابتداء الشيء وصنعه لا عن ومثال» ، مع أنها ظهرت في اللسان . كما تظهر هنا عبارة جديدة وهي إسناد الفعل «أبدع» إلى الشاعر الذي يأتي بالبديع في شعره ، وإن بدت بعض الملامح الدالة على هذه العبارة في كلام ابن فارس الذي ينص على أن الإبداع يكون في القول والفعل معاً : «أبدعت الشيء قولاً وفعلاً إذا ابتدأته لا عن سابق مثال» (٥٢).

وتأخذ كلمة «البدعة» عند صاحب القاموس المحيط دلالة سلبية لكنها أكثر وضوحاً عما كانت عليه عند ابن فارس ، وتكتسي طابعاً أكثر خصوصية حين تصبح بمعنى «الحدث» في الدين بعد الإكمال ، وتصبح فعلاً أو قولاً مما يخالف ما أمر به الله ورسوله ﷺ .

ومن هنا يتبين أن هاتين الدلالتين لمعنى البدعة «بدعة هدى وبدعة ضلال» هما اللتان أقرتا النظرة الثنائية التي نظر بها البلاغيون ، على اختلاف اتجاهاتهم الدينية إلى فنّ البديع باعتباره فعلاً قولياً خالف به أصحابه العرف والمألوف . ولهذا كان من بين هؤلاء البلاغيين من استحسن البديع لأنه «بدعة هدى» ومنهم من استهجنه لأنه بدعة ضلال .

وأخيراً فهل كان ابن المعتز يدرك هذه الدلالات اللغوية المختلفة للمصطلح الذي وضعه عنواناً لكتابه ؟ .. ليس في كتابه «البديع» ما يشي بذلك ، ولكن يمكن أن نشير إلى أن ابن المهتز كان قد أدرك الطابع الابتكاري لفنون القول التي تشتمل على الألوان البديعية ؛ لذا فقد نص على أن البديع هو فضيلة من فضائل الشعر العربية ، وأنه لا يعني مجرد زخرفة أو زينة كما سيشيع في أوساط البلاغيين ، في العصور اللاحقة ، وإنما يعني ضروباً من أساليب التعبير الفني جديدة ؛ و «بدعة هدى» عرفها الشعراء القدامى

حسب رأي ابن المعتز ، ونسج المحدثون على منوالهم فيها ، ثم انحرفوا بها إلى «بدعة ضلال» حين أسرفوا فيها وأفرطوا وخالفوا «المثال البديعي النموذجي الذي يمثل بالقياس إلى ابن المعتز معياراً أصيلاً من معايير الشعرية العربية ، يحدد معالمها ويحافظ على هويتها ، ويحميها من الدخيل المتهافت .

إن البديع بوصفه نمطاً حديثاً مبتدعاً في التعبير الأدبي لايمكن - في نظر ابن المعتز- أن ينبثق من خارج الشعرية العربية ، وبعبارة أدق : ليس هنالك تجديد أو إبداع أو حداثة خارج الأصول .

ثانياً : البديع اصطلاحاً :

(أ) الجاحظ وابن المعتز :

سبقت الإشارة في بداية هذه الدراسة إلى أن الجاحظ قد عرض لكثير من الفنون البديعية والبلاغية في أثناء حديثه عن البلاغة بصفة عامة ، وقد أحصى بعضهم هذه الفنون فوجدها أحد عشر لوناً أو تزيد ؛ ولكن هذه الألوان كانت ممتزجة بوجوه أخرى من نظرية «البيان والتبيين» التي جهد الجاحظ في وضع أسسها ورفع أعمدتها .

قال أحد الدارسين في معرض حديثه عن جهود الجاحظ في البلاغة والبديع : «وذكر البديع ، وهو عنده وصف للمعاني والصور الغريبة الطريفة كالاستعارة والتشبيه وفنون البلاغة الأخرى» [٥٣] وربما أطلق البديع على الاستعارة . ويتضح ذلك من خلال الأمثلة الكثيرة التي ساقها وقال عنها : «وهذا الذي تسميه الرواة البديع» [٥٤]. وقال أحدهم : إن كلمة «البديع» كانت تعني عنده الاستعارة والتشبيه ؛ ولم نر للجناس والطباق ذكرا في كتابيه «البيان والتبيين» و «الحيوان» [٥٥].

ولاحظ الباحثون على الجاحظ أنه لم يكن يهتم بوضع التعريفات الدقيقة المحددة ؛ لذا جاء كلامه عن البديع - كمصطلح بل كمفهوم - غامضاً عاماً ، كما يقول كراتشكوفسكي [٥٦].

وإذن ، فلننطلق من ابن المعتز في تعريف مصطلح البديع الذي هو عنده «اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم» [٥٧] ، وهذه الفنون لاتتجاوز عنده خمسة أنواع ؛ قال : «قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا » [٥٨] ؛ ثم قال بعد ذلك : «ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ...» [٥٩] وشدّد على هذه الأبواب الخمسة التي هي أصول البديع بقوله : «فمن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع، ولم يأت غير رأينا فله اختياره» [٦٠].

ومن خلال هذا «البيان» الذي أذاعه ابن المعتز في كتابه يتضح أن «البديع» بوصفه فنوناً من الشعر لايكون في غير الأبواب التي ذكرها : أو بعبارة أخرى ، لا يسمى ما يخرج عن هذه الأبواب بديعاً ، وإنما محاسن كلام ، وهي في نظره كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن عمله وذكره» [٦١].

إن ابن المعتز ، بحصره البديع في أبواب خمسة معلومة [*] ، قد فتح أمام الشعراء والنقاد على حدّ سواء طرقاً وأساليب جديدة في التعبير الفني تقوم في أساسها على التخييل ممثلاً في الاستعارة ، وترتكز على مختلف الحواس وقوى الإدراك الأخرى ، بهدف اقتحام عوالم الإبداع المجهولة وإخراج المعاني المحجوبة إلى عين الوجود ، كما يعبر الأقدمون .

هذا وبخصوص تقديم تعريفات جديدة لمصطلح البديع بعد ابن المعتز ، يتضح أن البلاغيين سيغضون الطرف عن صياغة أي حد لمفهوم البديع ، ويكتفون بعرض الأمثلة

البديعية وشرح دلالاتها اللغوية والاصطلاحية إلى أن يجيء أبو يعقوب السكاكي ، فيعرف علوم البلاغة الثلاثة ويفصِل علم البديع عن كل من علمي المعاني والبيان .

(ب) قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) :

لم يقدم قدامة بن جعفر ، الذي يعد واحداً من أبرز النقاد القدامى ، أدنى تعريف لمفهوم البديع وحدّه . وإن الباحث ليشُدّه الاستغراب حين يتبين له بعد عملية إحصائية للفظة «البديع» ومشتقاتها ، أن هذه اللفظة لم ترِدْ في كتاب «نقد الشعر» سوى مرتين اثنتين : الأولى «بَدِيعة» بصيغة «فعيلة» وذلك في عبارة علّق بها على بيتين في المدح قائلاً بأن الشاعر هنا «قد أومأ إيماء موجزاً ظريفاً ، أتى على كثير من المدح باختصار وإشارة بديعة» [٦٢].

وكما هو ملاحظ فكلمة «بديعة» في هذا التعليق النقدي لا تتجاوز معنى الطرافة والجودة ؛ وهو معنى لا يرقى إلى مستوى الحدّ . والثانية : «الإبداع» ذكرها قدامة في معرض حديثه عن أحد نعوت «ائتلاف اللفظ والمعنى» وهو التمثيل ؛ فقال في تعليق ثان على بيتين للرماح بن ميادة ننقله بتصرف : «.. فعدل أن يقول في البيت .... إلى أن قال : ... ذهاباً نحو الأمر الذي قصد الإشارة إليه بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل له ، والإبداع في المقالة» [٦٣].

والنتيجة أن قدامة بن جعفر لم يتحدث عن البديع كفنّ مستقل قائم بذاته يتجسد فيه عنصر الخلق والابتكار ، ولم يقدم له تعريفاً لغوياً ولا تعريفاً اصطلاحياً كما فعل ابن المعتز ؛ وإن ما ذكره قدامة من «نعوت وعيوب» كانت في الواقع منصبة - كلها تقريباً - على عناصر البنية الشعرية من معان وأغراض ، وأوزان ، وقواف .. وإن كان قد ذكر بعض أنواع محاسن الكلام تحت مصطلح «نعوت» .

والواقع أن قدامة لم يتحدث عن البديع كظاهرة أسلوبية مستحدثة في الشعر العربي، وهو في هذا يكون شبيهاً بالجاحظ ،؛إلا أنه قد وضع حدوداً وتعريفات لبعض النعوت أو محاسن الكلام التي ذكرها ؛ وهي عنده ثلاثة عشر نعتاً أو محسناً [٦٤].

ولكن المتصفح لكتاب «نقد الشعر» لا يعدم تلميحاً من المؤلف ؛ بل إشارة إلى «البديع» بمعنى المبتكر ؛ وذلك في معرض حديثه عما يسميه بعنصر «الاستغراب والطرافة» حيث يقول : إن الناس يضعون هذين المصطلحين لوصف المعاني التي لم يُسبق إليها . ويرى أن ذلك لا يدخل في الأوصاف والنعوت التي أقرّها . ويحصر مصطلح «الاستغراب» في الأبيات الفرْدة القليلة النادرة ، وذلك حين يقول : «بل يقال لما جرى هذا المجرى طريف وغريب إذا كان فرداً قليلاً ، فإذا كثر لم يسمَّ بذلك» [٦٥].

ففي قوله هذا إشارة واضحة إلى البديع الذي يساوي عنده الغريب المفرد المصنوع على غير مثال سابق ، وهذا - كما مر معنا - واحد من الأصلين اللغويين اللذين وضعهما صاحب معجم مقاييس اللغة لكلمة «بديع» ؛ ومثل هذا ما لم يقل به ابن المعتز الذي لانشك في أنه كان من أنصار الصياغة الشكلية ، وأن المعاني كانت بالنسبة إليه مطروحة في الطريق كما قال أستاذه الجاحظ .

ثم إن قدامة - على مايبدو - كان يتجنب صنيع ابن المعتز ، ويحاول أن يصوغ نظرية في «علم الشعر» يسجل بها سبقاً مثله ؛ لكن في مجال آخر متميز وأكثر شمولية، ويوظف مصطلحات خاصة به لا يحب أن ينازعه الآخرون فيها مثلما لا يريد أن ينازعهم هو . قال : «والأسماء لا منازعة فيها إذ كانت علامات ، فإن قنع بما وضعته من هذه الأسماء ، وإلا فليخترع كل من أبى ما وضعته منها ما أحب ، فإنه ليس ينازع في ذلك» [٦٦].

(ج) ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ) :

قبل أن يصنف ابن رشيق كتابة العمدة الذي جمع فيه فنوناً كثيرة من البديع ، كان قد سبقه أبو هلال العسكري بتأليف كتابه «الصناعتين» وخصص القسم التاسع منه لعرض الألوان البديعية التي ذكرها ابن المعتز والنعوت التي ذكرها قدامة ، وما استنبطه هو من مصطلحات جديدة ، مثلَ لها بنماذج من القرآن الكريم والحديث الشريف وصور من الشعر والنثر ؛ ولكنه لم يتحدث عن مفهوم البديع ولا قدم له تعريفاً ؛ بينما نجد ابن رشيق يراجع «المصطلح» ويقرنه بمصطلح آخر هو الاختراع ؛ ويفرق بينهما قائلاً : «والفرق بين الاختراع والإبداع ، وإن كان معناهما في العربية واحداً ، أن الاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها والإتيان بما لم يكن منها قط . والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف والذي لم تجر العادة بمثله ، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع ، وإن كثر وتكرر فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ»[٦٧] .

ويبحث ابن رشيق في أصل دلالة كلمة «بديع» فيقول : «وأما البديع فهو الجديد ، وأصله في الحبال ، وذلك أن يُفتل الحبل حبلاً جديداً ليس من قوى حبل نُقضت ثم فُتلت فتلاً آخر»[٦٨]، ثم أقرّ أن «البديع ضروب كثيرة وأنواع مختلفة»[٦٩] .

ويقدم لنا ابن رشيق هنا فكرة جديرة بالاهتمام ، وهي حصره «البديع في اللفظ» و «الاختراع في المعنى» ، وحاول المزاوجة بينهما فقال : «فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى في لفظ بديع ، فقد استولى على الأمر وحاز قصب السبق»[٧٠] . فكان ابن رشيق - بحصره «البديع في اللفظ» - أدقّ فهماً لحقيقة هذه الظاهرة باعتبارها تشكيلاً لغوياً بالدرجة الأولى ، يتخذ من الكلمات ، بجرس حروفها ، وموسيقاها ، وتناسبها ، وتطابقها ، أو تكرارها وتجانسها ، وسيلة لتحقيق جماليات التعبير ، وإخراج المعاني والأفكار في صياغات لفظية «بديعة» ؛ أو ، بعبارة أصح ، يتخذ من اللغة وسيلة وغاية في آن واحد لإنجاز عمله الفنّي .

وابن رشيق - بحصره البديع في اللفظ - يكون قد وضع المعلم الأساس لتحديد مسار الظاهرة البديعية ؛ ولكن البلاغيين الذين جاءوا من بعده ، لم يلتزموا هذا المسار ، وآثروا أن يقسموا البديع بديعين : بديعاً معنوياً وبديعاً لفظياً [٧١].

(د) أبو يعقوب السكاكي(ت ٦٢٦هـ) :

يعد السكاكي في نظر كثير من النقاد والبلاغيين العرب علماً بارزاً من أعلام البلاغة والبيان العربي مثله مثل الإمام عبد القاهر الجرجاني ، وعمرو بن بحر الجاحظ .

فإلى السكاكي يعزى فصل علم البديع عن علمي المعاني والبيان ، وإليه يعزى أيضاً تقنين علوم العربية وتقعيدها ، ووضع حدودها ومصطلحاتها . وهو - وإن لم يضع تعريفاً يتضمن حداً لبديع ، على غرار ما صنع بخصوص العلوم الأخرى التي اشتمل عليها كتابه «مفتاح العلوم» - إلا أنه نص «أن البلاغة بمرجعيها ، وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين ، فههنا وجوه مخصوصة ، كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام ... وهي قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ» [٧٢]. وهذا ما عرف فيما بعد بالمحسنات المعنوية والمحسنات اللفظية التي كانت عند السكاكي مندرجة ضمن البلاغة والفصاحة كما يتضح من نصه السابق .

والنتيجة أن السكاكي لم يضع تعريفاً علمياً للبديع ، وأنه اكتفى بسرد نماذج من ألوانه وفنونه لم تكن كثيرة بالقياس إلى معاصريه من البلاغيين ، أو الذين سبقوا عصره منهم ، وربما يعود ذلك إلى كونه اقتصر على الأعرف منها كما قال .

(هـ) جلال الدين القزويني (ت ٧٣٩هـ) :

وإذ نسي السكاكي أن يصوغ تعريفاً جامعاً مانعاً لمفهوم البديع - كان لابد للقزويني، وهو يشرح «المفتاح» ويلخص شرحه - عليه أن يتدارك ما فات أستاذه ويصوغ العبارة التي تختزل مفهوم هذا الفنّ، ويضع الحدّ الذي يضبط معناه ويقربه من الأذهان .

وهكذا قال في صيغة تقريرية جافة : علم البديع «هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة وهي ضربان معنوي ولفظي» [٧٣].

وبمقارنة سريعة بين هذا التعريف للقزويني وما قاله السكاكي في حدّ علم البيان كما سبق ، يتبين لنا ما أضافه القزويني من عناصر أسهمت في ضبط مفهوم البديع وتحديد مكانته في العبارة الأدبية؛ حيث أخذ البديع منذ ذلك التاريخ يأخذ في الأغلب الأعم مفهوم الزينة والزخرفة اللفظية ، وقد كان قبل ذلك بحثاً دائباً بالصورة واللغة لاستجلاء المعاني واكتشافها ونقلها إلى الملتقي حية مشرقة .

و - يحى بن حمزة العلوي (ت . ٧٤٩هـ) :

كان يمكن أن أعرض هنا لمصطلح البديع كما فهمه كل من حازم القرطاجني (ت. ٦٤٨هـ) ، وابن البناء المراكشي العددي (ت. ٧٢١هـ) ، وأبي محمد القاسم السلجماسي (ت. ٧٣٠هـ) وثلاثتهم يمثلون اتجاهاً بلاغياً متميزاً يحفل بالبديع بوصفه صنعة أو علماً بصنعة يتوصل بها إلى بلوغ البيان ؛ إلا أنني لم أعثر على مفهوم محدد للبديع الذي بدا في مؤلفات هؤلاء البلاغيين ممتزجاً امتزاجاً تاماً بعلمي المعاني والبيان ، ومتداخلاً مع علوم وفنون أخرى نقدية وفلسفية منها ما يتعلق بصناعة الشعر ، ومنها ما يختص بصناعة البلاغة والبديع . وها هوذا ابن البناء يقول : «فصناعة البديع ترجع إلى صناعة القول ودلالته على المعنى المقصود ، ومستندها علم البيان» [٧٤]. ولا يبتعد عنه السجلماسي حين يقرر أن الهدف من وضعه كتاب «المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع» هو «إحصاء قوانين أساليب النظوم التي تشتمل عليها الصناعة الموضوعة لعلم البيان وأساليب البديع» [٧٥].

قلت كان يمكن أن أناقش مفهوم البديع عند هذا الثلاثي البلاغي الفلسفي ولما لمْ أعثر في مؤلفاتهم على مفهوم محدد له - آثرت أن أتحدث عن بلاغي آخر كبير وهو يحى

ابن حمزة العلوي صاحب كتاب «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» الذي نجد البديع عنده يتخذ مكانة مرموقة ويتبوأ درجة عليا بين العلوم الأدبية والبلاغية تربأ به عن أن يكون مجرد زخرف وزينة مثلما حكم عليه القزويني .

قال العلوي : «اعلم أن هذا الفن من التصرف في الكلام مختص بأنواع التراكيب ، ولا يكون واقعاً في المفردات ، وهو خلاصة علم المعاني والبيان ومصاص سكّرهما » [٧٦].

ويبين منزلة هذا العلم فيجعله خلاصة ما يُنتهى إليه بعد معرفة علوم أخرى ، ويصبح البديع عند العلوي ، في كونه تابعاً للفصاحة والبلاغة ، التاجَ الذي يُزين الكلام ويجمله ، يقول : «وعلم البديع هو تابع للفصاحة والبلاغة ، فإذن هو صفْو الصّفو ، وخلاص الخلاص ، وبيان ذلك ، هو أن العلوم الأدبية بالإضافة إلى حاجته إليها ، وترتبه عليها على خمس مرات ، كل واحدة منها أخص من الأخرى ، وهو الغاية التي تنتهى إليها كلها » [٧٧].

وهذه العلوم الأدبية الخمسة هي : علم اللغة ، وعلم التصريف ، وعلم الإعراب ، وعلم المعاني وعلم البيان ، وهي مرتبة بحسب الأهمية على شكل هرم من الأسفل إلى الأعلى «فكل منها يأتي في الرتبة التي تعلو سابقه لخصوصية يفتقدها الأول ، فإذا انتهينا إلى البديع - وهو ما لا نصل إليه إلا بعد إحراز ما سلف من العلوم الأدبية - حُزنا خلاصتها وصفوها ونقاءها ، فهي - العلوم الأدبية - وصْلة إلى البديع ، وهو منتهى أمرها وغاية شوطها » [٧٨].

وهذه المكانة التي يحظى بها البديع عند العلوي لا تضاهيها إلا المكانة التي يحظى بها هذا العلم عند ابن البناء المراكشي حين جعله أداة البيان الذي يمكن الأفراد من التعبير عن زفكارهم ومكنون صدورهم كل بحسب درجة ارتقائه في السلم الاجتماعي من حيث العلم والثقافة : «ولذلك يكون البيان عند الخاصة بالكلام البديع ويكون عند العامة بكلامها المبني على غير اللغة وعلى غير الإعراب» [٧٩].

ويقدم العلوي تعريفاً لمفهوم البديع في اللغة لا يختلف عما جاء في المعاجم إلا أن دلالته واحدة غير متعددة ، فالبديع «هو الموجد بالقدرة لا على جهة الاحتذاء ؛ فالمبديء والمبدع سيان في أن كل واحد منهما حاصل من غير مثال سابق ولا احتذاء متقدم...» [٨٠]. ثم يحدد موضوع هذا العلم ومجال اهتمامه فهو يدرس «مايعرض لجوهر اللفظ من الألقاب بحسب تأليفه بصرف النظر عن الدلالة المعنوية ، لأن دلالة اللفظ المعنوية تكون تابعة للفظ بحسب لقبه ؛ وهو ينقسم إلى قسمين : قسم يتعلق بالفصاحة اللفظية وقسم آخر يتعلق بالفصاحة المعنوية» [٨١].

وأما طبيعة هذا العلم فتتجلى في أنه أمر عارض لتأليف الألفاظ وصوغها وتنزيلها على هيئة تعجب الناظر وتشوق القلب والخاطر [٨٢] . وأما فائدته وخلاصة جوهره فتتمثل - كما يراها العلوي - «في التصرف في تأليف الكلام ونظمه وترديده بين الفصيح والأفصح ، والأقبح والأحسن» [٨٣].

ولكن الشئ اللافت للنظر في حديث العلوي عن البديع هو كونه ربط البديع بالمجاز في جانبه الاستعاري ، وهذا ما لم يقل به أحد من البلاغيين ؛ فالبديع في البلاغة - بحسب رأيه - عبارة عن الكلام المؤلف على جهة الإسناد المجازي من حيث الاستعارة» [٨٤].

وبناء عليه يصبح كل بديع مجازاً ، وليس كل مجاز بديعاً ، ولا دخل للبديع فيما كان جارياً على الحقيقة ، ولا يكون البديع بديعاً إلا إذا كان كلاماً مؤلفاً . أما الكلام المفرد فلا دخل للبديع فيه ؛ وكذلك فلا يعد «الشبه المظهر» من البديع لأنه ليس من المجاز... [٨٥].

هذه الآراء الطريفة حول مفهوم البديع وحقيقته البيانية ينفرد بها العلوي ويمتاز عن غيره من علماء البلاغة الذين عاصروه أو عاشوا قبله . غير أن الأهمية التي يوليها

للاستعارة - وهي عماد البديع - تذكرنا بتلك الأهمية التي أولاها إياها الإمام عبد القاهر الجرجاني . وإنما لابد أن نسجل للعلوي هذه الإضافة الكبيرة المتمثلة في بنائه البديع على الاستعارة لا على الحقيقة .

ويبدو أن العلوي قد توجه بالبديع هذه الوجهة - أي بناء البديع على الاستعارة - حين رجع بالظاهرة البديعية إلى بدايات نشأتها ؛ حيث كانت كل النماذج الشعرية التي شدت انتباه البلاغيين والنقاد ، وعُدت من البديع تقوم على الاستعارة . وقد أشرنا إلى أن الجاحظ وابن المعتز وأبا هلال قد عرضوا في مؤلفاتهم كثيراً من صورها ؛ كما حفل بها عبد القاهر الجرجاني احتفاء كبيراً ؛ فالاستعارة بحكم طبيعتها التخييلية المتميزة ، وبكونها وجهاً من الوجوه البديعية الشائعة ، كانت وما تزال تغلب على أساليب التعبير الفني في الأدب العربي منذ القديم إلى اليوم .

والخلاصة أن النقاد والبلاغيين القدامى فهموا البديع على أنه ضرب من أساليب التعبير الشعري المبتكرة ، جاء بها المحدثون ؛ ولكن هذه الأساليب لم يخل منها شعر الأقدمين . هكذا يرى ابن المعتز ومن أيده ؛ وأما ابن البناء المراكشي ويحي بن حمزة العلوي ومن دار في فلكهما فيرون أن البديع - وإن لم يضعوا له تعريفاً - هو أقصى ما يمكن أن يدركه الشاعر أو الناثر من أسمى أساليب التعبير وألوان فنون القول ، وعندهم أن القرآن الكريم هو الصورة المثلى التي يتجلى فيها البديع بوصفه عمود أساليب البلاغة ومنتهى العلوم الأدبية وخلاصة علمي المعاني والبيان .

(ز) مفاهيم معاصرة للبديع :

إن هذه الجهود المتفاوتة التي بذلها بعض النقاد والبلاغيين القدامى في سبيل وضع حد للبديع يحفظ له بعده الفني ووظيفته التعبيرية وقيمته الجمالية لم تؤت ثمارها ، واندثرت أمام صرامة الحد الجامع المانع «الذي نزل فيها القزويني ، والقاضي بأن البديع لا

يعدو أن يكون زينة وتحسيناً للكلام يعمد إليه الشاعر أو الناثر بعد أن يكشف عن المعنى ويبين عنه بما يطابقه من الألفاظ الدالة عليه والمعبرة عن المقصود منه . وكما هو معروف ، فقد ساد مفهوم القزويني ، وتبناه معظم الدارسين والمصنفين في البلاغة والبديع ، ولم يزيدوا عليه أو يتجهوا به وجهة جديدة منذ عهده ، بل منذ عهد السكاكي الذي نظر إلى البديع على أنه وجوه مخصوصة يصار إليها لقصد تحسين الكلام .

وفي العصر الحديث روجع علم البديع ضمن ما عرف بمحاولة إحياء البلاغة والبيان ، وربط بفن الأسلوب الأدبي ، بل اعتبر عنصراً من عناصره الجمالية المؤثرة . وقد بدا الاهتمام واضحاً بفنون البديع وألوانه المختلفة ، وأجريت دراسات تطبيقية على النصوص الشعرية والنثرية في ضوء نظرية الأسلوب ، وحظي البديع بمكانة مرموقة بوصفه أداة للتعبير وظاهرة صوتية وموسيقية متميزة لا تكاد تخلو منها قصيدة شاعر أو مقالة كاتب أو خطبة إمام ! .

وقد نص أحد الباحثين على أن كتاب «البلاغة» الذي ألفه الأستاذان مصطفى أمين وعلي الجارم يُعد من أحسن الكتب المؤلفة في فنّ البيان العربي في القرن العشرين على الرغم من أنه ألف لغاية تعليمية ؛ وقال بأنه «يمكن أن نعده حلقة اتصال بين ما استقرت عليه البلاغة ، وما يرجى أن يكون لها من بعث وحياة وازدهار» [٨٦] . كما أشار بعضهم إلى أهمية هذا الكتاب وقيمته الأدبية والبلاغية والعلمية [٨٧].

والذي يهمنا نحن في هذا الكتاب هو تعريف صاحبيه لمفهوم البديع وتحديد موضوعه حيث وصفاه بأنه «دراسة لا تتعدى تزيين الألفاظ أو المعاني بألوان بديعية من الجمال اللفظي أو المعنوي ، ويسمى العلم الجامع لهذه المباحث بعلم البديع» [٨٨] . والحقيقة أن هذا التعريف لم يقدم لنا شيئاً ذا بال سوى تأكيده على عنصر «الجمالية» وطرحه فكرة المطابقة، وبذلك يكون تعريفاً متهماً بالتقصير عن اللحاق بتعاريف القدامى التي سقناها قبل قليل.

ونضيف إلى هذا الكتاب كتابين آخرين اعتُبر كلاهما عمدة في بحث البلاغة العربية وتوجيهها وجهة جديدة ترتبط بالأسلوب ، وهما «فن القول» للأستاذ أمين الخولي ، و«الأسلوب» لأحمد الشايب ؛ وقد ظهر فيهما البديع متصلاً اتصالاً وثيقاً بالأسلوب ، فهو من أخص خصائصه . وبينما بحثه الشايب في إطار جمالية الأسلوب الأدبي ، بحثه الخولي في إطار اللفظة من حيث جرسها ، وحسن أدائها «لمعناها بتأثير الرنين الصوتي في الجناس، والسجع ، والترصيع ، والتصريع ورد العجز على الصدر ، ولزوم ما لا يلزم»[٨٩] ؛ وفي إطار الصورة التعبيرية بهدف تبيان أثر اختلافها في التأثير والقوة مثل التشبيه ، والاستعارة ، والمجاز ، والكناية ، والتجريد ، والقلب ، وأسلوب الحكيم والمبالغة ... والرمز ، والإيماء ، والإلغاز ، والتورية ، والاستخدام ...»[٩٠].

وقد نال البديع عند هذا الأخير حظاً كبيراً من العناية والاهتمام ، أحسب أنه كان له أثر في لفت أنظار الباحثين المعاصرين إلى مراجعة هذا الفنّ والبحث في ألوانه المتنوعة واستثمارها في بحوثهم التطبيقية على النص الشعري ضمن منظور أسلوبي شامل . ونشير هنا إلى أنموذجين معاصرين من الدراسات [*] سارا في هذا الاتجاه ؛ الأول الدراسة الوصفية الشيقة التي أنجزها الدكتور محمد الهادي الطربلسي وقصرها على «خصائص الأسلوب في الشوقيات» والثاني البحث النظري التطبيقي الذي أنجزه محمد العمري بعنوان «تحليل الخطاب الشعري : البنية الصوتية في الشعر - الكثافة - الفضاء - التفاعل» . والباحثان وإن كانا قد صبّا جهودهما على البنية والأسلوب في علاقتهما بالبلاغة والعلوم اللسانية الحديثة ؛ فإنهما أوليا عناية فائقة لفنون البديع ، واستثمرا مصطلحاته ووظفاها توظيفاً علمياً موفقاً .

وقد أحصيت من ألوان البديع ومصطلحاته عند الباحث الأول أكثر من أربعين لوناً ، بينما عددت للثاني ما يزيد عن ستين . وعثرت عند الأول على تعريف طريف للبديع أحب أن أختم به هذه الدراسة .

يعرف الدكتور محمد الهادي الطربلسي البديع بأنه «يدرس فيه عموم الكلام نثره وشعره ، ويتسع الدرس فيه إلى كل ضروب الموسيقى المطبقة غير المشروطة ، كما يتسع فيه الدرس إلى الحركة حتى إذا لم تكن مولدة موسيقى معينة» [٩١] .فهذا الفهم لطبيعة البديع ينبني على كونه يشكل عنصراً أساساً في التعبير الأدبي ، وهو ميزة من ميزات الأسلوب وخاصة من خصائصه .

وهكذا - كما يقول حمادي صمود - يصبح «البديع سواء فهمناه بمعنى جديد أو بمعنى «الصورة» هو أخص خصائص الأدب» [٩٢] وليس البحث في أنواع البديع وفنونه في النص الأدبي - على هذه الحال - سوى بحث في أساليب التعبير وخصائصها الجمالية والبنائية والوظيفية ؛ وهذا ما شكل منهجاً نقدياً متميزاً لدى البلاغيين القدامى يمكن أن نطلق عليه المنهج البديعي في نقد الشعر الذي بدأ مع عبد الله بن المعتز في مقابل مناهج أخرى مغايرة كالمنهج اللغوي ، والنحوي ، والعروضي ... وكلها مناهج تعالج النص الأدبي من وجهة نظر مخصوصة .

الهوامش

١ - التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس الهجري (مشروع قراءة) . تأليف حمادي صمود ، منشورات الجامعة التونسية ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، ١٩٨١ ، ص ٦١١ .

٢ - نفسه ، ص ٦١١ .

٣ - البلاغة تطور وتاريخ ، د. شوقي ضيف ، ط ٦ ، دار المعارف ، ج .م .ع ، ١٩٨٣ ، ص ٥٦ .

٤ - الصبغ البديعي في اللغة العربية ، د. أحمد إبراهيم موسى ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٤٢ .

٥ - نفسه ص ٦١ .

٦ - البيان والتبيين ، عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، ط ٣ ، مطبعة دار التأليف بالمالية ، مصر ، ١٩٦٨ ، ص ٥٦ .

٧ - علم البديع والبلاغة عند العرب ، كراتشو فسكي ، ترجمة وتقديم محمد الحجيلي ، ط ١ ، دار الكلمة للنشر ، ١٩٨٣ ، ص ٦٧ .

٨ - نفسه ، ص ٦٨ .

٩ - النظريات اللسانية والبلاغية عند الجاحظ من خلال «البيان والتبيين» ، محمد الصغير بناني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ١٩٨٣ ، ص ٣٣٠ .

١٠ - نفسه ، ص ٣٤٣ .

١١ - نفسه ، ص ٣٤٣ .

١٢ - النظريات اللسانية والبلاغية ، ص ٣٣٠ - ٣٤٧ .

١٣ - نفسه ، ص ٣٣٥ .

١٤ - يتبين للدارس أن جميع هذه الأمثلة الشعرية التي أوردها الجاحظ في الجزء الرابع البيان (من ص ٤٨ إلى ص ٦٨) وفي الجزء الثالث من الحيوان (من ص ٥٢ إلى ٦٨) تدور كلها حول محور البديع . وانظر : النظريات اللسانية والبلاغية ، ص ٦٦ .

١٥ - النظريات اللسانية والبلاغية ، ص ٣٣٥ وما بعدها .

١٦ - التفكير البلاغي عند العرب ، ص ١٦٩ .

١٧ - فن البديع ، د. عبد القادر حسين ، دار الشروق ، القاهرة ، د . ت ، ص ٤١ .

١٨ - كتاب البديع ، تصنيف عبد الله بن المعتز ، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهرس اغناطيوس مراتشكوفسكي ، ط ٢ ، دار المسيرة ، بغداد ، ١٩٧٩ ، ص ١ .

١٩ - نفسه ، ص ٥٨ .

٢٠ - نفسه ، ص ٣ .

٢١ - نفسه ، ص ٥٨

٢٢ - مناهج بلاغية ، د. أحمد مطلوب ، ط ١ ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٣ ، ص ١٢٨ .

٢٣ - نفسه ، ص ١٢٨ .

٢٤ - الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ، الولي محمد ، ط ١ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠ ، ص ٣٦ .

٢٥ - البيان العربي : دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى ، د. بدوي طبانة ، ط ٤ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٢٨ .

٢٦ - البلاغة تطور وتاريخ ، ص ٥٧ .

٢٧ - نفسه ، ص ٢٩ .

٢٨ - نفسه ، ص ٣١ .

٢٩ - التفكير البلاغي عند العرب ، ص ٣٧٥ .

٣٠ - كتاب البديع ، ص ٥٧ .

٣١ - العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق وشرح د. مفيد محمد قميحة ، ط ١ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣ ، ص ١٨٤ .

٣٢ - البلاغة تطور وتاريخ ، ص ٧٥ .

٣٣ - الموجز في تاريخ البلاغة ، د. مازن المبارك ، دار الفكر ، د. ت ، ص ٦٨ .

٣٤ - التفكير البلاغي عند العرب ، ص ٣٧٦ .

٣٥ - التفكير البلاغي عند العرب ، ص ٣٨٩ .

٣٦ - الموجز في تاريخ البلاغة ، ص ٧٤ .

٣٧ - علم البديع والبلاغة عند العرب ، ص ٦٨ .

٣٨ - الموجز في تاريخ البلاغة ، ص ٧٣ .

٣٩ - الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ، ص ٣٧ .

٤٠ - البيان العربي - دراسة في تطور الفكرة ، ص ١٣٤ .

٤١ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، ط ٢ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٨٩ .

٤٢ - معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ج ١ ، دار الفكر ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠٩ .

٤٣ - نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

٤٤ - لسان العرب ، لابن منظور ، دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، د . ت ، مج ٨ (بدع) ، ص ٦ .

٤٥ - نفسه (بدع) ، مج ٨ ، ص ٦ .

٤٦ - نفسه (بدع) ، مج ٨ ، ص ٦ .

٤٧ - لسان العرب ، (بدع) ، ص ٦ .

٤٨ - نفسه (بدع) ، ص ٦ .

٤٩ - القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩١ ، ج ٣ ، ص ٧ .

٥٠ - نفسه ، ص ٧ .

٥١ - نفسه ، ص ٧ .

٥٢ - معجم مقاييس اللغة ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

٥٣ - مناهج بلاغية ، ص ١٦٤ .

٥٤ - نفسه ، ص ١٦٤ .

٥٥ - الصبغ البديعي ، ص ٦١ .

٥٦ - علم البديع والبلاغة عند العرب ، ص ٦٨ .

٥٧ - كتاب البديع ، ص ٥٨ .

٥٨ - نفسه ، ص ٥٧ .

٥٩ - نفسه ، ص ٥٨ .

٦٠ - نفسه ، ص ٥٨ .

٦١ - كتاب البديع ، ص ٥٨ .

٦٢ - نقد الشعر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق وتعليق الذكتور عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت ، ص ١٠٥ .

(*) هذه الأبواب هي : ١ - الاستعارة ، ٢ - التجنيس ، ٣ - المطابقة ، ٤ - رد أعجاز الكلام على ماتقدمها ، ٥ - المذهب الكلامي . انظر : كتاب البديع ، ص ٥ و ٢٥ و ٣٦ و ٤٧ و ٥٣ على الترتيب .

٦٣ - نفسه ، ص ١٦٠ ، وبيتا الرماح بن ميادة هما :

ألم تك في يمنى يديك جعلتني ... فلا تجعلني بعدها في شمالكا

ولو أنني أذنبت ما كنت هالكا ... على خصلة من صالحات مهالكا

٦٤ - البلاغة تطور وتاريخ ، ص ٩٢ .

٦٥ - نقد الشعر ، ص ١٥٢ .

٦٦ - نفسه ، ص ٦٨ .

٦٧ - العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ص ١٨٣ .

٦٨ - نفسه ، ص ١٨٤ .

٦٩ - نفسه ، ص ١٨٤ .

٧٠ - نفسه ، ص ١٨٣ .

٧١ - مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، ضبط وتعليق نعيم زرزور ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ ، ص ٤٢٣ .

٧٢ - نفسه ، ص ٤٢٣ .

٧٣ - التلخيص في علوم البلاغة ، جلال الدين القزويني ، شرح عبد الرحمن البرقوقي ، ط ٢ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٣٢ ، ص ٣٤٧ .

٧٤ - الروض المريع في صناعة البديع ، ابن البناء المراكشي العددي ، تحقيق : رضوان بنشقرون ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٥ ، ص ٨٩ .

٧٥ - المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السجلماسي ، تقديم وتحقيق : علال الغازي ، ط ١ ، مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب ، ١٩٨٠ ، ص ١٨٠ .

٧٦ - كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحى بن حمزة العلوي ، طبعة المقتطف ، نشر مؤسسة النصر ، تهران ، ١٣٤٨هـ ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ .

٧٧ - نفسه ، ص ٣٤٧ .

٧٨ - فن البديع ، ص ١٣ .

٧٩ - الروض المريع في صناعة البديع ، ص ٨٨ .

٨٠ - كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

٨١ - نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ .

٨٢ - نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

٨٣ - نفسه ، ص ١٨٩ .

٨٤ - نفسه ، ص ٢٠٦ .

٨٥ - نفسه ، ص ٢٠٧ .

٨٦ - البيان العربي ، دراسة في تطور الفكرة البلاغية ، ص ٣٧٥ .

٨٧ - نفسه ، ص ٤٢١ .

٨٨ - البلاغة الواضحة ، البيان والمعاني والبديع ، علي الجارم ومصطفى أمين ، ط ١٧ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦٣ .

٨٩ - نقلا عن : البيان العربي ، دراسة في تطور الفكرة البلاغية ، ص ٤٢١ .

٩٠ - نفسه ، ص ٤٢١ .

٩١ - خصائص الأسلوب في الشوقيات ، د. محمد الهادي الطرابلسي ، منشورات الجامعة التونسية ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، ١٩٨١ ، ص ٢٠ .

٩٢ - التفكير البلاغي عند العرب ، ص ٢٤٧ .

(*) الدراسات التي حاولت أن تنهض بالبديع وتعيد إليه الاعتبار كممارسة إبداعية على مستوى الأسلوب وجماليات التعبير الأدبي كثيرة .

المصـــادر والمراجع

١ - البلاغة تطور وتاريخ ، د. شوقي ضيف ، ط ٦ ، دار المعارف ، ج . م . ع ، ١٩٨٣ .

٢ - البلاغة الواضحة - البيان والمعاني والبديع ، علي الجارم ومصطفى أمين ، ط ١٧ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ .

٣ - البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط٣، مطبعة دار التأليف بالمالية، مصر، ١٩٦٨.

٤ - البيان العربي : دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها البكرى ، د. بدوي طبانة ، ط ٤ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٥ - التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوره إلى القرن السادس الهجري (مشروع قراءة) ، تأليف حمادي صمود ، منشورات الجامعة التونسية ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، ١٩٨١ .

٦ - التلخيص في علوم البلاغة ، جلال الدين القزويني ، شرح عبد الرحمن البرقوقي ، ط ٢ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٣٢ .

٧ - خصائص الأسلوب في الشوقيات ، د. محمد الهادي الطرابلسي ، منشورات الجامعة التونسية ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، ١٩٨١ .

٨ - الروض المريع في صناعة البديع ، ابن البناء المراكشي العددي ، تحقيق : رضوان بنشقرون ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٥ .

٩ - الصبغ البديعي في اللغة العربية ، د. أحمد إبراهيم موسى ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٨ .

١٠ - الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ، الولي محمد ، ط ١ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠ .

١١ - علم البديع والبلاغة عند العرب ، كراتشكو فسكي ، ترجمة وتقديم : محمد الحجيلي ، ط ١ ، دار الكلمة للنشر ، ١٩٨٣ .

١٢ - العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق وشرح : د. مفيد محمد قميحة ، ط ١ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣ .

١٣ - فن البديع ، د. عبد القادر حسين ، دار الشروق ، القاهرة ، د . ت .
١٤ - القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩١ .
١٥ - كتاب البديع ، تصنيف عبد الله بن المعتز ، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهرس اغناطيوس كراتشكوفسكي ، ط ٢ ، دار المسيرة ، بغداد ، ١٩٧٩ .
١٦ - كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحى بن حمزة العلوي ، طبعة المقتطف ، نشر مؤسسة النصر ، تهران ، ١٣٤٨هـ .
١٧ - لسان العرب ، لابن منظور ، دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، د . ت .
١٨ - معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، ١٩٧٩ .
١٩ - مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، ضبط وتعليق : نعيم زرزور ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ .
٢٠ - المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السجلماسي ، تقديم وتحقيق : علال الغازي ، ط ١ ، مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب ، ١٩٨٠ .
٢١ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، ط٢، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨١ .
٢٢ - الموجز في تاريخ البلاغة ، د. مازن المبارك ، دار الفكر ، د . ت .
٢٣ - النظريات اللسانية والبلاغية عند الجاحظ من خلال «البيان والتبيين» ، محمد الصغير بناني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٨٣ .
٢٤ - نقد الشعر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق وتعليق : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت .